حديث في القرن التاسع عشر

للأستاذ خليل هنداوي

إلتفت إلى محدثي — وهو شيخ وقور[1] — وقال لي :

— إنني محدثك حديثاً عجباً !

قلت : هات !

قال :

كنت في نهاية القرن التاسع عشر في وظيفة إفتاء للأسطول العثماني . وألزمتُ أن أركب البحر من الدار العلية إلى شاطئ المغرب لمشاغل دينية ، على باخرة يونانية صغيرة تميل كلما مال عليها الموج . كنت في عزلة موحشة ، لأني غريب لا تميل سحنة إلى سحنتي ، ولا ينحني زي على زيي . وصدفة جلس إزائي على المائدة رجل قد تجاوز الأربعين ، ولكن ملامح الأسفار على وجهه ، وقد استبد الشيب بأكثر مساحة رأسه . أما همته ، فلا تزال في صعود : يمشي فلا ينحني ، ويتكلم فلا يتتعتع ...

بادرني قائلاً بالألمانية :

— هل تحسن الألمانية ؟

— لا .

سكت ريثما فرغت جفنة من الطعام وعاد سائلاً :

— هل تحسن الفرنسية ؟

— لا .

— هل تحسن الإنجليزية ؟

— لا .

ثم قال لي بلسان فصيح طلق كأنه أحد البداة :

— وهل تحسن اللغة العربية ؟

— أنا ابنها !

— ما اسمك ، وما وسمك ، ومن أين ، وإلى أين ؟

أجبته على سؤاله ، وعجبت من أمر هذا الرجل الذي كان ينبغي له لما صادفه من زيي أن يسألني بالعربية . وقدم إلى نفسه بأنه مستشرق ألماني من هامبورج ، قضى في الشرق زمناً طويلاً يبلو به الأخلاق ، ويدرس العادات . وكانت صحبتنا خلال هذه الأيام المعدودة ، صحبة متينة وثيقة ، تجاذبنا فيها ما اختلفت ألوانه من الأحاديث . وقبل أن يغادرني إلى بلده قال لي :

— والآن أريد أن أسألك عن مسألتين ، ولكني رجل لا أحب النقاش الممل ، والجدل القائم على المكابرة .

قال :

— إنني أطلب إلى الله أن يميتني على دين عمر بن الخطاب !

قلت له :

— يا هذا ! إن الدين دين محمد ، فكيف تسنده إلى عمر ؟ !

أجاب :

— نعم . إن الدين دين محمد ، ولكني أدعو الله أن يميتني على دين عمر . . . إن محمداً جاء بالدين ودعا إليه ، وأبو بكر شد أزره ، وثبت أمره . وجاء عمر ينشره ويؤيده وينفذه ... ومات عمر والمسلمون من بعده لا يزالون يتخبطون في فتنة عمياء ، عرفت أوائلها ، ولا تعرف خواتمها ! المسلمون اليوم على دين غير دين عمر . وماذا — لعمر الله — يرعون من هذا الدين إلا رسومه ؟

دين عمر يأمر بالصلاح وهم فاسدون . دين عمر يأمر بالأمانة وهم خائنون ، ويأمر بالصدق وهم كاذبون ، ويأمر بالوفاء وهم غادرون . . .

سمعتُ هذا من محدثي ، وبرقت لنفسي خاطرة أحببت أن أوضحها ، وأحببت أن ألفت إليها أنظار المصلحين من رجال الدين : إن الأخلاق التي حث عليها الدين تنحصر في نوعين : الأخلاق الحسية ، والأخلاق المعنوية . أما الأولى فهي تتناول الظاهر وتجمل من الرجل الذي يتمسك بها رجلاً فاضلاً محترماً . وإلى هذا النوع من الأخلاق يميل المصلحون ، وعلى ممارسته يحثون . على أن المسلمين في الحقيقة لم يتردوا في هذا الدرك الأسفل من الذل ، لأن بعضهم يشرب الخمر أو يفسق أو يقامر ، وإنا لنرى أكثر الأمم المتسلطة علينا غارقة في خمرها وفسقها وقمارها . . فلم يضرها ذلك شيئاً . أما الجانب الأكثر خطراً في الأخلاق ، فهو الجانب المعنوي الذي تقاس به حيوية الأمم . ولعل هذا الجانب هو ما قصد إليه المستشرق ، لأنه وجد أخلاقنا المعنوية ، ومقاييسنا الروحية هزيلة جداً : فتاجرنا مثلاً يثري بالخيانة والحيلة ، وفقيهنا يرتع بالكذب ، ومصلحنا يقصد جيبه قبل أن يقصد ربه . ومثل هذا الجانب هو ما ينبغي للمصلحين أن يعالجوه ! وقد عرف رجال الدين كيف نعت الرسول (ص) الكفر بالشرك الأكبر والرياء

(١) وهو الأستاذ الطرابلسي الشيخ علي شيخ العرب

فى الأخلاق بالشرك الأصغر. ومن ذا الذى لايذكر ذلك الأعرابى الذى قدم على الرسول والرذائل حشو ثيابه، فقال له: إنه لايستطيع أن يقعد عن الخمر، وعن الفسق، وعن القمار. فما عالجه الرسول الحكيم إلا من الناحية المعنوية التى تقوى الشخصية وتنقى النفس قال له:

— لا تكذب، وافعل بعد هذا كل شىء!

لكن الأعرابى بعد يومين ترك كل رذيلة.

وها هنا روعة الفهم وروعة الحكمة!

ولكن كيف يعمل مصلحون يتاجرون بالأخلاق الحسية على حساب الأخلاق المعنوية؟

إلتفت المستشرق إلى محدثى وسأله عن المسألة الثانية:

— وما هو الفارق بين الشرقيين والغربيين؟

فاعتذر صاحبى بأنه لا يعرف الغرب معرفة صحيحة، كما اعتذر الشيخ محمد عبده حين سأله الفيلسوف سبنسر عن أخلاق الإنجليز

فأجاب المستشرق:

— إن الشرقى كفرد له قيمته وطيبة قلبه، بعكس الغربى الذى فسدت ذاتيته، وتعطلت محاسن نفسه. ولكن الشرقى حين يندمج ويتكتل مع غيره لا يلد إلا كتلة فاسدة متفسخة، يسوقها الطمع، وتقتلها الأنانية. بعكس الكتلة الغربية التى يسودها النظام، وتذوب فيها المصالح الفردية. ولهذا يرجع سر نجاح الجمعية الغربية، وفشل الجمعية الشرقية!

ولقد أصاب المستشرق الهدف إلى حد بعيد، لأن تربية الشرقى تربية ذاتية أنانية تدور حول نفسها، لا تعمل الخير ولا تطلب الإحسان فى العمل إلا إذا عملت لنفسها. بينما تربية الغربى تكاد تصبح تربية جماعية اجتماعية، كأنما أدركت هذه التربية قول الرسول (ص): يد الله مع الجماعة.

ولكن ماعسى يقول هذا المستشرق لو عرف أن الشرق الذى كان يعرفه قدمات، وأن الشرق اليوم قد أضاع طيبة القلب وأمانة النفس كفرد، وبهذا أصبح لايصلح للحياة كفرد فى نفسه ولا فى مجتمعه!

وهنا افترقا...

* * *

لكن القدر هيأ لهما اجتماعاً ثانياً بعد أربعة أعوام فى مدينة المستشرق — هامبورج — فاستقبل المستشرق صاحبنا وأحله فى مثواه، لأنه عربى له عليه حق الضيافة. وفى اليوم الثانى عرّج به إلى الجامعة، وقدمه إلى رئيسها، وهو شيخ مفكر، لكنه غير محلول اللسان

قال الرئيس لمحدثى بالعربية:

— كيف رأيت بلادنا؟

— البلاد جميلة!

— جميلة! الظواهر جميلة فى انتظام، أما البواطن ففى انقلاب! ولكن إذا حكم الإنسان العقل أدرك الأمور بحقائقها

فالتفت محدثى إلى الرئيس وقال:

— على ذكر العقل وإدراكه للحقائق، أود أن أذكر هذه الفقرة من كتاب مخطوط قرأته فى مكتبة — أياصوفيا — وهو فى التصوف، واسمه «نور الأبصار» لمؤلفه الشيخ بهاء الدين اليانيلى من منطقة الألبان (صدر فى سنة ١١٦٠ هـ). قال عن الشيخ العارف الأكبر السيد محى الدين بن عربى: «ما عرفت رجلاً عرف الله عن طريق العقل مثل أفلاطون... وأفلاطون فيلسوف يونانى تفتحت له الحكمة، وانزاحت عن عينيه الحجب. وقد أوصى بأن ينقش على قبره: «الحكمة سلم العالم الأعلى، من علمها فقد علم الغرب إلى بارئه، من تدبر نظر، ومن نظر عرف، ومن عرف عمل، ومن عمل انفتح ذهنه وعقله، ومن انفتح ذهنه وعقله صفت نفسه، ومن صفت نفسه وصل إلى خالقه بدون واسطة!»

وهنا طلب الرئيس إلى محدثى اسم الكتاب واسم مصنفه ومكانه. وطلب إلى أستاذ فى الجامعة أن يسافر لنده إلى — الدار العلية — لاستنساخ الكتاب. ويضيف محدثى إلى ما قاله: وبعد شهرين علمت من قيم المكتبة أن أستاذاً ألمانياً نقل الكتاب، وأعطى القيم مكافأة حسنة...

خليل هنداوى

الافصاح فى فقه اللغة

معجم عربى: خلاصة المخصص وسائر المعاجم العربية. يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ويسعفك باللفظ حين يحضرك المعنى. ألفته وزارة المعارف، لايستغنى عنه مترجم ولا أديب، يقرب من ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير. طبع دار الكتب، ثمنه ٢ قرشا يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه:

حسين يوسف موسى، عبد الفتاح الصعيدى